

شعر

## ساعة الذئب\*

نزيه أبو عفش

إلى فاتح المدرس... وآخرين

هكذا، دونما سبب واضح أشعر الآن أنني حزينٌ  
وأنني على وشك الموت... والأرض قبري،  
وأن رفاقي جميعاً  
رحلوا.. تاركين زوابع أنفاسهم في كؤوس النبيذ المريرة  
هكذا، دونما سبب، أشعر الآن أنني مريضٌ من الحزن  
والأرض تكمل دورتها في سديم التعاسة... زرقاء.. سوداء...  
مثخنة تحت قبة هذي السماء الضريرة  
وأنا جالسٌ فوقها كالرسول اليتيم  
أتصفح آلامها...  
وأعدُّ ثواني الحياة الأخيرة.

هكذا، دونما سبب، أشعر الآن أنني حزينٌ... وأنني  
دونما أسف سوف أقطع هذا المجاز الذي يوصل الغرباء إلى تربة الغرباء:  
أعدُّ خطاي على ورق الذكريات.. وأمضي  
ساهماً في طريقي  
أتلقتُ حولي كمن يتوقع أن يجد الذئب مختبئاً تحت أنفاسه

فأفكر أني...  
لم يعد لي مكانٌ على هذه الأرض أبني ضريحي عليه  
وأن صديقي (صديقي الذي في كتاب الرسول...) سوف  
يُمكنني فجأةً من ذراعي لكي يدَّعي أنني أنا قابيلُ...  
ثم يطعنني في ظلامي ويمضي إلى جهة التلِّ مستبشراً بالحياة...  
يعاتبني... ثم يمضي،  
ويندبني... ثم يمضي،  
ويتركني... ثم يمضي  
إلى جهة التلِّ... كي يقطف الورد عن أمه  
ويؤدي الصلاة على العشب كي يصفح الله عني  
ويرحم إخوته الميتين...

ألهذا إذن أشعر الآن أني حزينٌ  
وأنني على وشك الموت، مثلي مثل المسيح،  
وأن قضاتي يدورون حولي بلا ندمٍ، وهمو يغسلون أصابعهم من دمي  
ويُعدّون لي الشمع كي يطرودا وحشة الموت عن موتهم!...  
يذرفون الأنين على وحشتي.

يشهقون  
يطوفون حول نعاسي وقد أوقدوا خوفهم في مباحرهم  
وأضأوا مصابيحهم فوق رأسي لكي ينعسوا تحت ظلمتها...  
وأنا ساكتٌ في السديم الأصمّ  
هادئٌ وضعيفٌ... كما شاءني الله...  
منكسرٌ تحت آلام نفسي،  
أراقبهم ملكاً ملكاً ورسلاً ورسلاً،  
أميز أصواتهم... ملكاً ملكاً ورسلاً ورسلاً،  
وأبغضهم... ملكاً ورسلاً.  
وأبصرهم في منامي كما يبصر الميتُ قاتله.  
أبيهنهم، وأرى الموت ينضج من خوفهم.  
أتصفح أعناقهم وأعدّ شرايينها وهي تلمع تحت الظلام.  
أعدّ أصابعهم، وخواتم أعراسهم، وسواعدهم،

والعاكب سوداءً تسرخُ فوق مناكبهم. وأراهم...  
أعدّ نقوشَ خناجرهم ورنينَ المفاتيح،  
أقراطهم،  
خُوْدَ الجنرات تفضح وحشتهم،  
ضجرَ الأنبياء ويأس اللصوص،  
جسارة أفكارهم وصليل عقائدهم،  
خوفهم من ظلامي يهبّ على نومهم في الظلام، تمانئهم تتأرجح لامعةً في  
الظلام، طهارتهم في الظلام، مكائدهم، صمئهم يتوجه حول فخاج الثعالب،  
ألوان أثوابهم في الهواد الذي أنشأوه لأنفسهم في أعالي الهوا...! أعدّ الهوا. أعدّ  
خدوش أظافرهم فوق لحم الهوا. أشمّ قتامة أنفاسهم في قتامة جسم الهوا. أشم  
الهوا الذي في الهوا. أشمّ التباس الهوا. أشم سواد الهوا الذي... لا يفشم.  
وأرى الحشرات التي...  
وأميز لون السماء التي ...  
والنجوم التي كنت أوقدتها دمةً دمةً تحت سقف السماء التي... وأعدّ ثواني الحياة  
التي ألهمتني السعادة قبل ثلاثين موتاً...  
أتنسّم عطر النساء اللواتي...  
كنت أحببتهنّ بلا أمل  
ورفعت لهنّ السماوات مسقوفةً بالألم.  
غير أنني، هنا، تحتسقف السماء التي لا تراني...  
لم أزل واقفاً كالرسول اليتيم  
أغالبُ ضعفي  
وأبكي على حيرة الكائنات بكاءً مسيحٍ على نفسه  
وأعدّ رماد الثواني...  
قلتُ: لا تبك أيوب...  
ثم شددت لحافي على غصتي... كي أعطي هبوب الندم  
ورأيتُ الألم.  
لا تقل لي إذن: «ما لي يجعل الميث يحزن؟...»  
لا شيء. لا شيء يحزنني غير نفسي.  
ولا شيء. لا شيء يحزنني أبداً.  
هكذا، دونما سببٍ واضحٍ، صرتُ شخصاً حزيناً.

صار لي كتفان حزينان، وجه حزين، وقلب حزين، وجسم...  
وصارت عظامي...  
تتجدد من شدة الحزن.

صرت، بلا سبب، أتنبصت تحت الظلام فأبصر مادة حزني.  
أميز ملمسه في نسيج الهواء الكفيف،  
أرى وجهه يتلألأ خلف ظلال المعاني كما تتلألأ فاكهة الموت،  
أسمع أنفاسه تترقرق في غصّة الحبر... زرقاء... خضراء  
مثل لهاث العصافير تسبح في موتها.

هكذا.. صرت شخصاً حزيناً، يكابد حزناً حزيناً، وصرت أرى الله في  
هيئة امرأة هدها الحزن.. تبصرين من بعيد فتشبهق مذعورة، ثم تهرب مني كأن لا  
ترى غصني تحت سقف الحياة الحزين...  
هكذا... دونما سبب!  
فانكفات إلى ليل نفسي  
خائباً وضعيفاً... كما شاءني خالقي...  
... وفقدت اليقين.

ف... لماذا إذن أشعر الآن أنني حزين؟...  
الأنني تعبت من السير في جنتي.. جنة الميتين...؟...  
أم لأنني  
ضقت ذرعاً بنفسني  
وضجرت من الشعر - فاكهة الميتين...؟... أم لأنني  
صرت أسمع في غصّة الطين غصّة أحفاده  
فأرى ندم الله؟!... أم...  
أم لأن الحزين؟ / أسود  
والقصيدة زرقاء (زرقاء مثل الخطيئة)؟...  
زرقاء!....

زرقاء روي. أغاني زرقاء. صمتي أزرق. تنهيدتي. ضجر الحب أزرق.  
آلام نفسي زرقاء والخوف أزرق. وحشة قلبي. جمال الخطيئة. لون الهواء. نحيب  
العصافير أزرق. آنية الورد والطر أزرق. صوت المرتل. ثوب الفتاة  
ضفيرتها. تحتها. شهقة الدم طالعة من شقوق بكارتها. تاج مآتمها...

ساعة الذئب زرقاء... والذئب أزرق!...

.....

غير أن الحنين / أسوداً.

والقصيدة سوداء!...

: (هذا دواؤك أيوب، هذا دواء الندم!...).

وإذن، كيف يمكنني الآن ألا أكون جزيئاً...

وأنا أتخبط في هذه الكلمات وأسأل:

– ماذا يخبئ لي ساعة الذئب؟...

ماذا يخبئ لي صاحبي الذئب؟...

ماذا يخبئ لي الشعر تحت فخاخ الثعالب؟...

ماذا يخبئ لي ملكي وروسولي؟... وماذا يخبئ لي الوقت؟... – عطر الحنين...

لداواة آلام نفسي،

وحبر الشقاء....

لأرفو أسمال هذا الخريف الحزين.

هكذا، دونما سبب، يتشقق قلبي...

فأبصرني عارياً كمسيح يطوف على التلّ..

كقاه كقاي، حيرته حيرتي. صوته صوت نفسي وقد نعتت. فمه.

كتفاه الضعيفان. عيناه، غصنته. يأسه. شفاته. أصابعه. روحه الدامية!....

فأجر خطاي إلي مآتمي...

خائفاً ووحيداً.

غنائي يعكسُ خوفي؛ وروحي

ذبلت في يدي.. كما يذبل الورد في الآنية.

ألهذا إذن أشعر الآن أنني حزين!

ألأن القصيدة – فاكهة الموت – سوداء تحت لساني؟...

أم لأن الحنين...؟!...

– بل، لزن الحنين...

حيلته الخائفين من الموت

.....

قل لي إذن:

ما الذي يبصر الميتُ تحت الكفنُ /

غيرَ أوهامه؟! ...

ما الذي يجد الميتُ تحت الكفنُ /

غيرَ حيرته تتدفقُ زرقاءَ فوق سرير الزمن؟! ...

لا تقل لي: يرى نفسه، أو يرى الله فيها...

لا تقل لي: ويسمع في نومه خفقانَ الزمن...  
يتسرب من قلبه ويسيل على الليل.

قل لي: يرى خوفه طافياً في وعاء الزمن...  
ويرى الموت... أبيضَ ... كالنور...

.....

.....

قل لي إذن:

ما يؤرقُ روحك في الموت... غيرُ الندم؟! ...

– شهوتي للجمال الضعيف... وسحرُ الخطيئة.

قل لي... وماذا يؤرقُ روحك غيرُ الندم؟! ...

– أن أرى ما يرى الميتُ في نومه:

الروحُ جائعةٌ.. وجمالُ الخطيئةِ يخبو.

وقل لي:.....

– أرى ما يرى الميتُ:

ليلٌ يسيلُ على الليل: أسئلةُ الموت تدفع أسئلةَ الموت...  
قل لي، وماذا؟! ...

– أرى ما يرى الميتُ في نومه:

الأرضُ عمياءُ، والنورُ أعمى.

أرى الله ملتبساً في عقائده... وأرى رُسلَ الله يبكون أنفسهم

في مهبِ الندمِ.

وأرى قسوةَ الخوف في ضجر الكائنات...

أرى الضعفَ مُتَبَدِّلاً... والجمالَ حزيناً!..

أرى كيف تطهو العدالةُ لحمَ الحياة بملحٍ ودمٍ! ...

وأرى الأرضَ طافيةً في خرائبِ دمٍ:

عشبُ نيسانَ... دمّ.  
العصافير فوق عيون البنادق ... دمّ.  
ذكرياتُ الطفولة... دمّ.  
شهوات المحبّينَ ... دمّ.  
شهقةُ الناديِ في رئةِ الناي... شهقةُ دمّ.  
زهرةُ الأرضِ... فكرهُ دمّ.  
غصّةُ الناسِ... غصّةُ دمّ.  
الحقيقةُ.. حيلةُ دمّ.  
كلّ ما تلمس اليدُ فوق التراب... خزانةُ دمّ.  
رَوَغانُ الخلائقِ في الأرضِ سَعِيٌّ إلى حقلِ دمّ.  
والعدالةُ... ميزانُ دمّ.

فلماذا إذنُ لا أكون حزيناً؟.  
لماذا إذنُ؟...  
ولماذا أداوي تعاسةَ نفسيَ بالشعر... وهو خلاصةُ دمّ؟...  
الآنَ الألمُ /  
شهوتي ودليلي؟...  
أم لأنني أرى في الألمِ  
صرخةَ الله يبكي على نفسه في سماواتِ دمّ؟...  
أم لأن الشقاءَ /  
لُقمَةُ الروحِ؟...  
أم؟...

يا إله السماء...  
يا إلهي الذي كنتُ أرضعتهُ حيرتي في أعالي السماء...  
رُدّني ... خائباً وضعيفاً كسابق عهدي.  
رُدّني... حجراً في العراءِ.  
رُدّني... زهرةً في إناءِ.  
رُدّني... زهرةً في إناءِ.  
رُدّني دودةً، سلحفاةً، غزالاً ينطّ على الصخر، قبرةً تنتزّه عمياءَ

---

فوقِ هواءِ الحقولِ المقطَّر، جرواً على بابِ راعيه ينبح من ضجرٍ...  
رُدَّ قلبي الضَّعيفِ إلى جسْمه...

رُدَّ لي العطفَ. رُدَّ الجمالَ القَدِيم، وشوقَ اليتيمِ إلى الحبِّ.  
رُدَّ القصيدَةَ زرقاءَ (زرقاءَ مثلَ الخطيئةِ فوق سُريرِ الخطيئةِ)  
رُدَّ حنانَ السماءِ..

وضعفَ النساءِ.

ورائحةَ الوردِ تنضجُ غامضةً من جلودِ النساءِ.

ورُدَّ إلى الروحِ بعضَ الألمِ...

رُدَّه شاهقاً وجليلاً... لكي نتعرَّف فيه على نفسنا

حين تُعربُ شمسُ الحنانِ عن الأرضِ.

رُدَّ الألمُ

ناصعاً وكريماً... كما يشتهي الشعراءُ.

رُدَّه طاهراً... كحليبِ النساءِ.

أو أعذني إلى خالتي الشجرةِ...

غيمةً تتلألأُ تحت لحاءِ الحياةِ الكتيمِ...

كما تتلألأُ فاكهةُ الموتِ...

.....

.....

قل لي إذن: أهو الخوفُ،

أم هي فاكهةُ الموتِ؟....

– بل هي فاكهةُ الموتِ يُنضجها الخوفُ تحت قميصِ الزمنِّ.

– أم هو الخوفُ؟....

– أالخوفُ عطرُ القصيدِ

والموتُ شكُّ الزمنِّ.

---

\* «ساعة الذئب» حسبما يقول إنغمار برغمان، هي الساعة التي يموت فيها معظم الناس ... وفيها معظم الناس يولدون.